الإحيـــاء للغـــزالى

بقلم
الدكتور عبد الحليم محمود
رئيس قسم العقيدة و الفلسفة بجامعة الأزهر

— ١ —

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى . ولد بطوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠ هـ الموافق عام ١٠٥٨ م .

وكان والده — كما يقول ابن السبكى فى طبقاته — يغزل الصوف ويبيعه فى دكانه بطوس ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف وأعطاه ما ادخره من مال يسير قائلا :

« إن لى لتأسفاً عظيما على عدم تعلم الخط ، وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدىّ هذين » .

وأشرف عليهما الوصى الصالح، وعلمهما الخط ، وأدبهما إلى أن فنى ذلك النزر اليسير الذى كان خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما ، فقال لهما : اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من أهل التجريد ، بحيث لا مال لى فأواسيكما به ، وأصْلَحُ ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة ، فإنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ، ففعلا ذلك ، وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما . وكان الغزالى يحكى هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله[١].

وفى عهد الصبا فى طوس ، أخذ طرفاً من الفقه على الإمام أحمد الراذكانى ، ثم سافر إلى جرجان ، ليأخذ عن الإمام أبى نصر الإسماعيلى ، فسمع منه وكتب عنه ثم عاد إلى طوس ، فمكث بها ثلاث سنين يتأمل ويتدبر ويحفظ ما حصله بجرجان ، وبعد ذلك « قدم نيسابور ، ولازم إمام الحرمين ، حتى برع فى المذهب[٢]، والخلاف ، والجدل ، والأصلين[٣]، والمنطق ، وقرأ الحكمة ، والفلسفة ، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطليهم ، وإبطال دعاويهم[٤]. . . » .

وكان إمام الحرمين يصفه بأنه : « بحر مغرق »

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) خرج الغزالى إلى المعسكر قاصداً للوزير

(١) من كتاب إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، للعلامة محمد بن محمد الحسينى الزبيدى .
(٢) مذهب الشافعى .
(٣) يعنى أصول الدين وأصول الفقه .
(٤) شرح إحياء علوم الدين للزبيدى .

نظام الملك « إذ كان مجلسه مجلس أهل العلم ومحط رحالهم ، فناظر الأئمة العلماء فى مجلسه ، وقهر الخصوم وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله . فتلقاه الصاحب بالتعظيم وطار اسمه فى الآفاق ، واشتهر فى الأقطار » .

ولما أصبح بهذه المثابة ، اختاره نظام الملك للتوجه إلى بغداد ، وذلك للتدريس بالمدرسة النظامية بها ، فقدمها فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره المبارك . واستقبل فى بغداد، استقبالا حافلا ، فقد سبقته شهرته إليها .

وفى بغداد نال من الاحترام ، ما يشبه التقديس . لقد غلبت حشمته الأمراء والملوك والوزراء ، على حد تعبير ابن السبكى . وصار — على حد تعبير أحد معاصريه ، وهو عبد الغفار الفارسى — بعد إمامة خراسان إمام العراق » .

— ٢ —

ثم ماذا ؟

ها هو ذا قد بلغ قمة المجد ، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة : أتته من جانبها المالى ،

وأتته من جانبها الذى يتصل بالشهرة ، وذيوع الاسم ،

وأتته من جانبها الذى يتصل بالجاه والنفوذ حتى إنه ليذكر أن من قرب من الولاة : « كان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على ، وإعراضى عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم[1] » .

واستمتع الإمام بكل ذلك فترة ، لعلها لم تكن طويلة الأمد . . .

ثم ماذا ؟

ثم كانت انتفاضته العارمة التى انتزعته قسراً وفى عنف ، من وسط النعيم والأبهة والمجد . . . إلى حيث الانزواء والعزلة . لقد كان ينعم فى الترف الدنيوى ، وها هو ذا الآن ذاهب إلى الله ؛ لقد كان يرفل فى رياض من النعيم المادى ، وها هو ذا الآن فار إلى ربه ، ومهاجر إليه .

ماذا حدث ؟

هل حدث هذا الانقلاب الكلى فجأة ودون مقدمات ؟

لا شك أن ذلك لم يكن انتفاضة فجائية ، كانتفاضة سيدنا عمر بن الخطاب التى اقتلعت — فى دقائق — جذور الشرك من أعماقه وغرست — فى دقائق — أصول التوحيد فى سويداء فؤاده ، فآمن فى لحظة وأناب .

لقد كان الإمام الغزالى طيلة حياته طلعة يجرى وراء المجهول . وكان كما يقول عن نفسه : « ولم أزل فى عنفوان شبابى — منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين — أقتحم لجة هذا البحر العميق[1]، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ؛ لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ؛

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ؛

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ؛

ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ؛

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ؛

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبـــادته ؛

---

(١) المنقذ من الضلال .

(١) بحر المعرفة .

ولا زنديقاً معطّلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه ، لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته . »

ويقول أيضاً :

« قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى : غريزة وفطرة من الله ، وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا » .

ومن أجل ذلك يقول عنه « دى بور » : « وقد وُهبَ هذا الفتى عقلا متوثباً قوى الخيال ، لا يرضى بأى قيد يغله » .

ولكن هذا النهم فى البحث وهذا الاستقصاء فى الدراسة ، وهذه العقلية الجريئة الناقدة ، كل ذلك انتهى به إلى الشك فى ما يرى ويسمع ويقرأ ، وفيما يقول ويعتقد .

وكان هذا الشك عنيفاً ، حاداً ، شاملا ، عاماً ، طيلة شهرين هو فيها : « على السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » .

ولكن هذا الشك المطلق الشامل العام تبخر وزال ، لا بنظم دليل وترتيب كلام ؛ « بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر » .

— ٣ —

زال ذلك الشك ، ليحل محله شك آخر هين سهل . وهذا الشك الثانى : إنما هو شك فى طريق النجاة . حقاً إنه الآن يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث . ولكن ما هى الكيفية التى يتكيف بها الإيمان ، فيما يتعلق بهذه الجوانب الثلاثة .

هذه الكيفية ، إذا وضحت ، تحدد النهج الذى يجب أن يسير عليه .

ودراسته المستفيضة : بينت له أن كل فريق من الباحثين — على كثرتهم واختلافهم : « يزعم أنه الناجى وكل حزب بما لديهم فرحون » .

أى هذه الأحزاب محق ، وأيها مبطل ؟

ذلك هو : ما أخذ الإمام الغزالى نفسه باستكشافه .

ورأى أن أوضح طريق وأسهله ، أن يحصر أصناف الطالبين للحق ، ويدرسهم صنفاً صنفاً ، أو فرقة فرقة .

وانحصرت الفرق عنده فى أربع :

١ — « المتكلمون : وهم يدّعون ، أنهم أهل الرأى والنظر .

٢ — « الباطنية : وهم يزعمون ، أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ — « الفلاسفة : وهم يزعمون ، أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ — « الصوفية : وهم يدعون ، أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة » . اهـ

هؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، والحق إذن : لا يعدو هذه الأصناف الأربعة .

وشمر الإمام الغزالى عن ساعد الجد ، لدراستها ، وابتدأ بعلم الكلام ، فوجده لا يشفى غلته ، ذلك أن أكثر خوض المتكلمين إنما هو : « فى استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا .

وثنى بدراسة الفلسفة ، وأطلعه الله على منتهى علوم الفلاسفة فى أقل من سنتين ، ثم أخذ يفكر فيما انتهى إليه قريباً من سنه : يعاوده ويردده ، ويتفقد غوائله ، وأغواره حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل .

فرأى أن مجموع ما صح ينحصر فى ثلاثة أقسام

١ — قسم يجب التكفير به .

٢ – وقسم يجب التبديع به .
٣ – وقسم لا يجب إنكاره أصلا .
أما هذا الذى لا يجب إنكاره : فمثل :
١ – العلوم الرياضية .
٢ – المنطقيات .
٣ – العلوم السياسية .
٤ – العلوم الخلقية .
٥ – أما الطبيعيات : فلا إنكار فيها إلا فى مسائل معينة، ذكرتها فى كتاب تهافت الفلاسفة وأكثر أغاليطهم إنما هى فى :
٦ – الإلهيات .

ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر .

وانصرف الإمام الغزالى عن الفلسفة ، لأن العقل : « ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات » .

فأخذ يدرس مذهب التعليمية ، وهو مذهب يقوم على القول بـ « الحاجة إلى التعليم والمعلم » وأنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم » .

وقد نقد الإمام الغزالى مذهبهم فى قوة وفى عنف ، وألّف كثيراً من الكتب فى الرد عليهم .

ولما انتهى من كل ذلك ، أقبل جهده على طريق الصوفية .

وطريق الصوفية : علم وعمل ، وابتدأ بتحصيل علمهم : من مطالعة كتب أئمتهم، مثل قوت القلوب ، لأبى طالب المكى ، رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة .

عن الجنيد ، والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم »اهـ

ولكن طريق الصوفية : لا يتم بالعلم فحسب ، بل إن العلم فيه : أقل جانب من جوانبه ، أما الجانب الذى يصل بالإنسان إلى النور والإشراق واليقين ، إنما هو : الجانب العملى ، وهذا النوع يحتاج إلى الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وذلك يقتضى الإعراض عن المال والجاه والشهرة وذيوع الصيت ؛ ويقتضى الخلوة فترة تطول ، أو تقصر ، يتفرغ فيها الإنسان تفرغاً كاملا إلى الله مهاجراً إليه ، فاراً إليه .

وكان الإمام الغزالى : إذ ذاك ، منغمساً فى المال والجاه والشهرة . وبدأ الصراع فى نفسه بين الشهوات والدنيا من جانب ، وبين التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود من جانب آخر .

ولم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ؛ وانتهى الأمر فى هذا التجاذب بأن اعتقل لسانه عن التدريس ، وغمر قلبه حزن أثر على صحته ، فضعفت قواه ثم يحدثنا هو عما فعل حينئذ :

« ثم لما أحسست بعجزى، وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب » . اهـ

— ٤ —

تلطف الإمام الغزالى بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد مُظهراً عزم الخروج إلى مكة ، وهو يدبر فى نفسه السفر إلى الشام . . . وسار يحدوه الأمل العذب فى المعرفة ، ويغمر قلبه الرجاء القوى فى الفتح : يتفضل الله به عليه ، كما تفضل على من سلف من الأولياء والعارفين .

حتى إذا ما وصل إلى الشام ، أقام به قريباً من سنتين لا شغل له إلا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق ،

وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، وكان يعتكف فى منارة مسجد دمشق طول النهار ويغلق بابها على نفسه .

ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس ، فكان يدخل كل يوم الصخرة ، ويغلق بابها على نفسه ، ثم صار إلى الحجاز ، لأداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول ، صلوات الله عليه .

ثم عاد إلى وطنه ، ملازماً بيته ، مشتغلا بالتفكير .

ولقد كان فى حله وترحاله مؤثراً العزلة ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر . . . ودام ذلك كله ما يقرب من عشر سنوات ، انكشف له فى خلواته أثناءها ، أمور لا يمكن إحصاؤها ، وأفاض الله عليه من النور الإلهى ،وغمرته ألطاف الله ، وترقى به الحال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، وكتاب الإحياء من ثمار هذه الفترة .

— ٥ —

كتاب الإحياء :

ولقد ألف الإمام الغزالى عشرات الكتب ، عد منها صاحب طبقات الشافعية ما يقرب من ستين كتاباً .

وعد منها شارح الإحياء الإمام الزبيدى ما يقرب من ثمانين كتاباً ورسالة :

منها فى الفقه : الوجيز ، والوسيط ، والبسيط .

ومنها فى علم الكلام : الاقتصاد فى الاعتقاد .

ومنها فى الفلسفة : مقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة .

ومنها فى التصوف : بداية الهداية ، ومنهاج العابدين ، وكتاب الإحياء .

بيد أننا إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالى — سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف فى أثنائها — فإننا نجد أن أهمها فى نظر الباحث الذى يريد أن يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة .

وهى ، فضلا عن ذلك ، تعتبر فى نظرنا أهم كتبه على الإطلاق .

ولو لم يؤلف الإمام الغزالى غيرها ، لبقى هو الغزالى العملاق ، الصوفى الفيلسوف ، بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئاً . . . ولكنه لو لم يؤلفها لما كان هو الإمام الغزالى صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ — أما أحدها ، فإنه : كتاب المنقذ من الضلال .

وهو كتاب لا غنى للباحث فى تطور حياة الغزالى الفكرية عنه ، ففيه يقص الإمام حياته الفكرية ، فى تطورها من الدراسة المستفيضة إلى الشك ، ثم إلى اليقين .

ويحدد موقفه من علم الكلام ، ومن مذهب التعليمية ، ومن الفلسفة والفلاسفة ، ثم من التصوف .

وفيه يبين موقفه من مسألة النبوة ، ومن الشكوك التى ترد عليها ، ويبين الطريق الصواب لإحياء الشعور الدينى ، حينما يفتر عند بعض الناس .

وهو من الكتب التى يندر ما يماثلها فى ثقافتنا الشرقية ، إذ أن كبار المفكرين عندنا ، لم يتجهوا إلى تسجيل تدرجهم الفكرى ، وانتفاضاتهم الذهنية .

ولم يسبق الغزالى — فيما نعلم — فى هذا النهج سوى الحارث بن أسد المحاسبى فى مقدمة كتابه الوصايا : فإنه قص فيه طرفاً من حيرته وشكه الهين السهل ، ثم يقينه الذى انتهى إليه ، وقد قرأ الإمام الغزالى كتب الحارث وانتفع بها ، وربما كانت مقدمة كتاب الوصايا من العوامل ، التى دفعت الإمام الغزالى إلى كتابة المنقذ .

وقد كتبه الإمام الغزالى بعد أن أناف سنه على الخمسين ، كما يذكر هو .

٢ — وأما ثانيها فإنه : كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فإن الإمام الغزالى «حينما سمى كتابه : تهافت الفلاسفة

— كما يقول أزين بلاسيوس — كان يريد أن يمثل لنا : أن العقل الإنسانى ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فاذا أبصر شعاعاً ، يشبه نور الحقيقة ، انخدع به ، فرمى بنفسه عليه، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ، فيهلك كما يهلك البعوض .

فكأن الغزالى يريد أن يقول : إن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية ، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدى .

وقد حاول بلاسيوس ، أن يجد فى عبارات كتاب التهافت ، وفى استعمال ابن رشد ، لهذه الكلمة ما يؤيد افتراضه »[1].

ومما لا شك فيه ، أن كتابه هذا : محاولة جريئة كل الجرأة ، موفقة كل التوفيق .

وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى ، لهجومه ، هو هدم الآراء فى نفسها ، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين .

وإنما كان هدف الإمام الغزالى : هدم المنهج العقلى الذى استندت إليه هذه الآراء .

فخلود النفس مثلا : رأى يقول به الإمام الغزالى ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام حمل معولا ، وأخذ يهدم بيد قوية ، المسلك العقلى ، الذى أثبت به الفلاسفة خلود النفس، فانهارت أدلتهم وتهافتت ...

لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود .

وهو لم يلتزم فى هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير فى وجوه أدلتهم ، بما يبين تهافتهم[2].

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم .

ويقول : أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بإلزامات مختلفة ، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية، وطوراً مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص

ولقد وفق الإمام الغزالى توفيقاً تاماً فيما انتدب نفسه إليه فى هذا الكتاب ، وهو إثبات أن العقل — إذا لم يتخذ الوحى هادياً ومرشداً — عاجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة فيما وراء الطبيعة .

أما ثالث الكتب فإنه : الإحياء .

وهو أهمها ، وأهم كتب الإمام الغزالى عامة ، ولقد قال فيه الإمام النووى « كاد الإحياء أن يكون قرآناً » .

وقد ألفه الإمام الغزالى فى أوائل الفترة التى اصطحب فيها مع العزلة ، ومما يؤيد ذلك ما رواه الإمام أبو بكر بن العربى فى كتابه « القواصم والعواصم » من أنه التقى بالإمام بمدرسة السلام فى جمادى الآخرة سنة تسعين وأربعمائة : وقد كان راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ست وثمانين إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام : . . فقرأت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذى سماه الإحياء لعلوم الدين . . . » .

أما فيما يتعلق بالبواعث التى من أجلها ألف الإمام « كتاب الإحياء » .

وأما فيما يتعلق بالهدف الذى من أجله ألف كتاب الإحياء ، وأما فيما يتعلق بجوهر موضوعه ، فإن ذلك كله يتلخص فى كلمة واحدة هى : الإخلاص . ولقد روى ابن الجوزى أن بعض أصحاب أبى حامد ، سأله قبيل الموت قائلا : أوصنى ، فقال له : « عليك بالإخلاص» ولم يزل يكررها حتى الموت .

عليك بالإخلاص ! ! لقد تلفت أبو حامد يوماً إلى نفسه ، فوجد أنه متجرد من الإخلاص ، وأن كل

---

(١) من كتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة .

(٢) من كتاب التهافت .

همه ، إنما هو الشهرة والصيت والجاه ، والمنزلة عند الناس وعند الحكام . . . وانتفض أبو حامد انتفاضته التى وضع بها نفسه فى محيط الإخلاص .

وتلفت أبو حامد – بعد ذلك – فيما حوله ، فوجد أن الناس صم ، بكم ، عمى عن قوله تعالى « ألا لله الدين الخالص » ؛ وعن قوله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، « فادعوا الله مخلصين له الدين » وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى تدعو إلى الإخلاص فى الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده وهى فى دعوتها إلى الإخلاص إنما تدعو إلى التوحيد . .

ووجد أن الشيطان قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح الدين فى نظر علمائه – فضلا عن غيرهم – فتوى حكومة ، أو جدلا للمباهاة والغلبة والإفحام ، أو سجعاً مزخرفاً يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى أبو حامد ذلك ألف كتابه النفيس .

وألفه ليستعيد الإخلاص إلى القلوب ، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح من اتخاذ الإخلاص أساساً وشعاراً . وما من شك فى أن إخلاص الدين لله وحده هو التوحيد ، وما من شك فى أن التوحيد هو جوهر الدين الإسلامى ، وهو طابعه ، وهو هدفه وغايته .

وألف الإمام كتابه إذن ليبين فيه الإخلاص أسساً ونتائج ، وأسباباً وغايات .

ورتب الكتاب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب فقرات . . . كل ذلك ليسهل تناوله .

فأما أقسام الكتاب فهى أربعة .

١ – قسم العبادات : يذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته من وجوه الإخلاص فيها ، وإقامتها على الأسس التى يحبها الله سبحانه ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

٢ – قسم العادات : يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه متدين .

٣ – قسم المهلكات : وهى الأخلاق المذمومة التى ورد القرآن بتطهير القلب منها : يعرف بها ، ويذكر أسبابها وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرق العلاج منها .

٤ – قسم المنجيات : يذكر فيه كل خلق محمود ويشرح الوسائل التى بها يكتسب ، والثمار التى تجنى من التخلق به .

وهو فى كل هذه الأقسام يبتدئ كل موضوع يعالجه بذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، وأخبار الصالحين .

ويفتتح كتابه « بكتاب العلم » فيسير فيه على حسب طريقته المحددة « شواهد الآيات ، والأخبار ، والآثار » « وشواهد الشرع والعقل »

لقد « شهد الله ، أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفاً ، وفضلا وجلاء ونبلا .

ويقول صلوات الله عليه : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوه ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال الأحنف رحمه الله : « كاد العلماء أن يكونوا أرباباً » .

والعلم الذى يريده الإمام الغزالى ، أوسع دائرة وأعم موضوعاً مما نسميه العلم الآن : إذ أن العلم الذى يريده الإمام الغزالى إنما هو علم الدين والدنيا ، ولا

يحرم الإمام الغزالى منه إلا ما يضر المجتمع ، كعلم السحر مثلا : فإذا أدى العلم « إلى ضرر ما ، إما لصاحبه أو لغيره » كان مذموماً .

والهدف من العلم على كل حال زيادة الهداية وغرس الإخلاص فإن « من ازداد علماً ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعداً » ص ٩٩ .

ولا بد للإخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ولذلك يثنى الإمام الغزالى بكتاب : « قواعد العقائد » وقواعد العقائد تدور حول ثلاث مسائل :

١ — الله وصفاته والأساس فيه ، أنه ليس كمثله شيء وأنه متصف بكل صفات الكمال : كالحياة والقدرة ، والعلم الشامل ، والإرادة الكاملة وغير ذلك من صفات الجلال والجمال .

٢ — وأنه ، سبحانه بعث محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، برسالته إلى كافة العرب والعجم ، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد ، وهو قول : لا إله إلا الله ما لم تقترن بشهادة الرسول ، وهو قولك محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول ، صلوات الله عليه ، فإن أول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار ، ما أرشد إليه القرآن ، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان ، وفى القرآن إرشاد واستدلال واضح على كل ذلك .

ويتهيأ الإنسان للإخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهرية وباطنية ، وقد أطال الإمام الغزالى فى الطهارة الباطنية ، وسنتحدث عنها فيما بعد ، أما الطهارة الظاهرية ، فمنها الوضوء فإن : « من توضأ فأحسن الوضوء ، وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه ، كيوم ولدته أمه » .

والوضوء على الوضوء نور على نور ، بيد أن الوضوء إنما شرع من أجل الصلاة ، والصلاة : إنما هى الباب الذى يدخل منه الإنسان إلى الله ، سبحانه وتعالى : يناجيه ، وينغمس فى رحابه ، ويستنير بنوره ، وهى من أجل ذلك ، كانت عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات ، وكانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وإنها لتنهى عن الفحشاء والمنكر . وهى كذلك ، بشرط الخضوع وحضور القلب ، وهذا هو معنى الإقامة فى قوله تعالى : « أقم الصلاة » أما من لم يكن كذلك فى صلاته ، فإنه يدخل تحت قوله ، صلوات الله عليه : « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » وما أراد ، صلوات الله عليه ، بذلك إلا الغافل ، أما إذا خشع فى صلاته ، فإنه يدخل فى دائرة قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

ويقرن الله سبحانه الزكاة بالصلاة فى غير ما موضع « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقد جعلها الله تزكية ، وبفضلها تزكى من عباد الله من تزكى ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ومعنى الإنفاق فى سبيل الله : إخراج حق الزكاة ، والزكاة نوع من تجريد الإنسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه ، وذلك من أجل الله .

والصوم باب العبادة وباب الإخلاص ، فإذا ما صام الإنسان إيماناً واحتساباً ، باهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه .

والصوم ثلاث درجات : صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص وهو كف الجوارح عن الآثام ، وصوم خصوص

الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية . ويكفى فى فضل الحج ما رواه الشيخان : البخارى ومسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والقرآن كتاب الإسلام المنزل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من تمسك به هدى ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال ، صلوات الله عليه : « أهل القرآن أهل الله وخاصته » . والقرآن : رسائل أتتنا من قبل ربنا بعهوده ، نتدبرها فى الصلوات ، ونقف عليها فى الخلوات ، وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات ، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، وتلاوته إذن مطلوبة جلاء للقلوب ، وشفاء لما فى الصدور ، وغرساً للإخلاص ، وتثبيتاً للتوحيد .

والقرآن نوع من الذكر والدعاء ، وقد حث الله على الذكر فى قوله تعالى : « فاذكرونى أذكركم » ، وفى قوله تعالى : « اذكروا الله ذكرا كثيراً » . والمخلص يذكر الله على الدوام مع حضور القلب ، فأما الذكر باللسان ، والقلب لاه ، فهو قليل الجدوى وحضور القلب فى لحظة بالذكر والذهول عن الله ، عز وجل ، مع الاشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى .

ولقد فضل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قول « لا إله إلا الله » على سائر الأذكار ، لأنها عنوان الإخلاص ، ودليل التوحيد . ومن الذكر : الصلاة على سيد المرسلين « إن الله وملائكته يصلون على النبى . « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . ومن الذكر : الدعاء ، والدعاء مخ العبادة ، يقول الله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان » ولكن لا بد للإجابة من التوبة ، ورد المظالم ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، عز وجل ، فذلك هو السبب القريب فى الإجابة .

وبعد أن ينتهى الإمام الغزالى بذلك من ربع العبادات يبدأ فى ربع العادات ، فيبين فيه آداب الأكل وآداب النكاح ، ثم يبين آداب الكسب والمعاش ، ويتحدث عن فضيلة العمل ، وعن الآثار الكثيرة : قرآنية ونبوية ، فى فضل العمل ، وفى استقامة العمال ، والتجار : فمن الذنوب ذنوب ، لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة ، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء .

ويخلص من ذلك إلى كتاب جليل نفيس هو « كتاب الحلال والحرام » . والحلال كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض ؛ والحرام كله خبث ، ولكن بعضه أخبث من بعض ، ويفصل الإمام كل ذلك لينتهى إلى « كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة . . . » وأساسه حسن الخلق ، والتأسى فيه بالرسول الذى يقول الله له : « وإنك لعلى خلق عظيم » وقد بعث ، صلوات الله عليه ، ليتمم مكارم الأخلاق . فإذا ما كان حسن الخلق كانت الإخوة ، وفائدة الإخوة كما يريدها الدين ، عظيمة . ولقد قال صلوات الله عليه فى الثناء على الأخوة فى الدين : « من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحاً ، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه » ومن أروع ما قاله ، صلوات الله عليه فى ذلك « مثل الأخوين ، إذا التقيا : مثل اليدين : تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً » .

ثم يتحدث عن الغزلة والاختلاط بين أنصار كل منهما وخصومه ، ليرى أن كلام الشافعى رحمه الله فى هذا الموضوع هو فصل الخطاب ، إذ قال « يا يونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم ، مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط » فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة . ويختلف ذلك بالأحوال ، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل هذا هو الحق الصراح . وكل ما ذكر سوى هذا فهو

قاصر . وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له فى الحـــال .

والسفر للعظة والاعتبار من أعظم ما يفيدُ الإنسان فى جانبه الروحى ، ولكن السفر قد يكون بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر البدن ، ويجمع السفرين ويحث عليهما قوله تعالى « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » .

وينتهى الإمام فى « كتاب السماع والوجد » بالحكم الرزين المنطقى ، وهو أن سماع الغناء قد يكون حراماً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً ، وقد يكون مستحباً .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا ، فلا يحرك السماع منهم ، إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذه عادة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لا حظّ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة . ولا بد — لاستمرار الدين حياً فى النفوس — من القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وبعد أن بين الإمام مواقف العلماء الرائعة ، وجهادهم فى سبيل الله ختم الفصل بقوله : فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى ، أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله ، تعالى ، أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية ، أثر كلامهم فى القلوب القاسية فلينها ، وأزال قساوتها ، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم ، لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ؛ وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه .

ويختم الإمام الغزالى ربع العادات بكتاب : « آداب المعيشة وأخلاق النبوة » فيبين ما كان عليه الرسول ، عليه السلام ، من خلق : هو كما فى القرآن ، ويشرح ، فى استفاضة ، ما يوضح قول الله تعالى ، لرسوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ويبتدىء ربع المهلكات بكتاب من أنفس الكتب ، لا غنى عنه قط ، لمن يريد أن يعالج التصوف عملياً ، أو أن يقتنع بحقيقته نظرياً ، ذلك هو كتاب « شرح عجائب القلب » وأهميته ترجع إلى أن القلب هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعى إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، فاذا تساءلت : ما معنى القلب الذى له هذه المنزلة ؟ فإنه : « هو لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ؛ وهو المخاطب والمعاتب والمطالب » .

وفى النصوص التى ذكرناها فيما بعد ما يغنى عن تلخيص هذا الكتاب .

ويتلو ذلك « كتاب رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق » ومن هذا العنوان وحده نفهم أن الإمام الغزالى مزج بين رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، أو بتعبير آخر ، جعل رياضة النفس تهذيباً للأخلاق ، والخلق الحسن : إنما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ؛ وثمرة مجاهدة المتقين ؛ ورياضة المتعبدين .

ولقد كان صلوات الله عليه يقول : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً » .

وأعظم المهلكات ، لابن آدم ، شهوة البطن فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار ، إذ نهى عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها ، فبدت لهما سوءاتهما .

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من كسر هـــذه الشهوة ، ومما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الإنسان إلا حلالا ، وألا يجعل الأكل هدفاً وغاية ، والأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة ، وقوة العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها .

ثم يتحدث الإمام عن « آفات اللسان » . وما من شك فى أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة ، ولكن الناس تساهلوا فى الاحتراز عن آفاته وغوائله ، وهى كثيرة ؛ ومما من شك فى أن من أسباب النجاة ما نصح به الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله « أمسك عليك لسانك » .

والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والاستهزاء ، والسخرية : كل ذلك من آفات اللسان ، والمثل العربى يقول : « مقتل الرجل بين فكيه » . والطريقة المثلى ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله .

ومن الآفات التى تفسد على الناس أمورهم « الغضب » . وقد روى أبو هريرة ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، مرنى بعمل وأقلل ، فقال له ، صلوات الله عليه : « لا تغضب » فأعاد الرجل السؤال ، فقال له : « لا تغضب » . ومما يزيل الغضب الجلوس إذا كان الإنسان قائماً ، والاضطجاع إذا كان جالساً ، ومما يزيل الغضب الوضوء والاغتسال ، ومنها السجود .

« ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن وجد ذلك شيئاً فليلصق خده بالأرض » . وهذه إشارة إلى السجود

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، ولا يزال ابن آدم يجرى وراءها فى جشع وفى تكالب فتستعبده إلى أن يهلك ، والمؤمن يستعبد الدنيا ، فتذل له ، فيتخذها مطية للآخرة .

ومحب الدنيا بخيل ، لأنه متكالب عليها ، وقد روى بسند صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال ، لإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثانى ، لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

أما المقياس الصحيح ، فهو قوله تعالى : « ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » .

وحب الجاه ، والزياء ، والكبر ، والعجب ، والغرور : كلها من الآفات التى يجب أن يتخلى عنها المؤمن ، إذا أراد أن يخلص لله نيته وقصده .

أما إذا وصلنا إلى ربع المنجيات ، فقد وصلنا إلى درة التاج وإلى النور الهادى وإلى صفاء الصفاء .

ويبتدىء هذا القسم ، أول ما يبتدىء « بالتوبة » : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب ؛ وعلام الغيوب ؛ مبدأ طريق السالكين ؛ ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ؛ ومفتاح استقامة المائلين ؛ ومطلع الاستصفاء والاجتباء للمقربين .

ووجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً » .

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يستراب فيه لمعرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور . ومهما يكن من شيء . فـ « إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » . ويقول صلوات الله عليه : « لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة . فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فالله تعالى ، أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

والإيمان : « نصفان » . نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت بذلك الآثار ، وشهدت به الأخبار وقد وصف الله الصابرين وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال صلوات الله عليه : « الصبر نصف الإيمان » ، وقال : « الصبر كنز من كنوز الجنة » .

ونعم الله على المرء لا تحصى ، وواجب الإنسان بهذه النعم هو الشكر ، والشكر نفسه سبب فى زيادة النعم ، يقول تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

والرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كئود .

ويقرن الإمام الغزالى الفقر بالزهد ، والزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وهو تحقق قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

والزهد إذن قوة ، لأنه بيع النفس والمال لله وتجرد فى سبيله .

والتوكل . منزل من منازل الدين ؛ ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من معالى درجات المقربين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد . فمن وحد الله حق توحيده توكل عليه . « أليس الله بكاف عبده » .

أما محبة الله . فإنها الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، ومن ثمارها الشوق والأنس والرضا ، وليس قبل المحبة مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها « كالتوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها » . فهى واسطة العقد ، ودرة القلادة « والذين آمنوا أشد حباً لله » « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله ، أحب إليه مما سواها » .

وقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم ، فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء . وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثورا » . ويقول صلوات الله عليه : « إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ؛ ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

ومن راقب الله فاز ؛ ومن حاسب نفسه نجا .

وقد وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، وكثر الحث فى كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو

مفتاح الأنوار ؛ ومبدأ الاستبصار ؛ وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم .

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين ، فقال تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا » ، ويقول « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب » . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : بكى حينما نزلت هذه الآية وقال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيهـــا » .

ومما يعين على وجه العموم التفكر فى الموت وما بعده ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ويقول صلوات الله عليه : « كفى بالموت واعظاً » .

ويختم الإمام الغزالى كتابه بقوله ، وروى أنه وقف صبي فى بعض المغازى ينادى عليه ، فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة فى خباء القوم ، فأقبلت تشتد ، وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على البطحاء، وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : ابنى ، ابنى ، فبكى الناس وتركوا ما هم فيه . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ، ثم بشرهم فقال : « أعجبتم من رحمة هذه لابنها » قالوا : نعم . قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها ». فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة .

فهذه الأحاديث وما أوردناه فى : « كتاب الرجاء » يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى ، ألا يعاملنا بما نستحقه ، ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته .

أما أثر هذا الكتاب فى العالم الإسلامى : فقد كان ضخماً ؛ لقد شرح واختصر عدة مرات ، وانتقده الكثيرون ، ودافع عنه الكثيرون وترجم الكثير منه إلى الإنجليزية والفرنسية والاسبانية وغير ذلك من اللغات الحية : شرقية وغربية .

ومخطوطاته : التى بمكتبات العالم ، لا تكاد تحصر ، وقد طبع فى القاهرة وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع فى الهند ، وفى تركيا ، وفى فارس .

ولا يزال الكتاب للآن فى العالم الإسلامى مصدر إلهام ونور ، ودراسة تختلف نتائجها ، لاختلاف نزعات الدارسين .

ولا يزال فى القطر المصرى جماعات تعقد حلقات أسبوعية تخصصها لقراءة الإحياء والتعبد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ .

أما تقدير العلماء ، لهذا الكتاب : فتصوره الآراء التاليـــة :

يكاد الناقدون يجمعون على كلمة : « أبو المظفر » سبط أبى الفرج بن الجوزى فى قوله : « ووضعه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا عليه ما فيه من الأحاديث التى لم تصح » .

وفكرة الأحاديث التى لم تصح أذاع بها كثيرون من أعداء الإمام الغزالى وتحدثوا عنها مقبلين ومدبرين قائمين وقاعدين ، ولكن ها هو ذا المولى أبو الخير يقول :

« أما الأحاديث التى لم تصح فلا ينكر عليه إيرادها لجوازه فى الترغيب والترهيب » .

والواقع أن الإمام الغزالى : لم يأت بهذه الأحاديث التى لم تصح لإثبات حكم ، أو للاستدلال على مبدأ ، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية التى يثبت بها ما تؤدى

إليه من أحكام وقواعد ، وهى على هذا الوضع كافية فى الإثبات والاستدلال ، ثم يأتى بعد ذلك بالأحاديث وبأقوال الصحابة والتابعين .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الإحياء فإن كل المبادئ والقواعد والعظات والعبر التى أتى بها الإمام الغزالى فى هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها من ناحية الإثبات والاستدلال .

ويتبين من هذا أنه لا قيمة لهذا الاعتراض ، لا شكلا ولا موضوعاً .

على أنه قد قام العالم الثبت الحجة الحافظ[1] العراقى الذى قال فيه شيخه : « إن ذهنه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة وأصبح الطريق أبلج .

رأى الحافظ العراقى :

قال الحافظ العراقى عن « كتاب الإحياء » : إنه من أجلّ كتب الإسلام فى معرفة الحلال والحرام جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن ، ومزج معانها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه مقتدياً بقول على كرم الله وجهه : « خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى » .

وقال الزبيدى شارح الإحياء : « وأنا لا أعرف له نظيراً فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر » .

وقال ابن السبكى : « وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها ، وإشاعتها ، ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقل ما ينظر فيه إلا ويتعظ به فى الحال » .

وقال الشيخ عبد القادر العيدروس فى كتابه « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » (اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له ، باعتبار حيثياتها لا تستقصى) .

وكان عبدالله العيدروس رضى الله عنه يكاد يحفظه ، وروى عنه أنه قال : « مكثت أطالع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ، ومفهومات غزيرة ، غير التى قبلها ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد » ومن كلامه : « عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية خصوصاً ، كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس » وقد ألزم الشيخ عبدالله العيدروس أخاه قراءة الأحياء ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة .

ونختم هذه التقديرات برأى أعتقد أنه فيصل الحق فى موضوع « كتاب الإحياء » وهو رأى فضيلة العالم الجليل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لا يتهم بعصبية ، والآراء مجمعة على أنه من العلماء الذين حاولوا جاهدين أن يكون كل ما يصدر عنهم ، إنما يراد به وجه الله . يقول :

---

(١) الحافظ العراقى : هو زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم ابن الحسين العراقى .

ولد بمصر فى جمادى الأول سنة ٧٢٥ هـ .

أما نسبته إلى العراق فترجع إلى أن أصل أبيه من العراق .

وتوفى والده ، وهو فى الثالثة من عمره ، ولكن عناية الله أحاطت به ، إذ وهبه الله فطرة ممتازة ، ذكاء خارقاً ، وذهنا صافيا ؛ وهمة عالية فى طلب العلم . ويسرت له عناية الله الجو الثقافى . فأخذ من كل العلوم الإسلامية بحظ وافر ، ولكنه تخصص فى « علم الحديث » وظهرت فيه مواهبه ، وكان من توفيق الله ، أن منحه ذا كرة قوية حافظة فلقبه شيوخه : « بحافظ الوقت » .

ومن أجل الحديث قام الحافظ العراقى بعدة رحلات ، سائراً فى ذلك على طريقة الأئمة السابقين الذين كانوا يقطعون مئات الأميال فى طلب الحديث الشريف .

لقد سافر العراقى إلى الشام متنقلا بين حواضرها ، وسافر إلى مكة والمدينة وانتهت حياته فى شعبان سنة ٨٠٦ هـ ، وقد بلغ من العمر إحدى وثمانين سنة ، خدم فيها الحديث خدمة جليلة .

« وإذا وجد العلماء فى كتاب الإحياء مآخذ معدودة ، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى كتاب الإحياء ، فضلا ، وسمو منزلة ، أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد ، وأن يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

النص الأول[1] فى (الطريق) — ١٣٧٧ :

الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى ، لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب عن شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى « فمن كان لله كان الله له » .

وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرءان ، ولا بالتأمل فى تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد ألا يخطر بباله شىء سوى الله تعالى . فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه : الله الله على الدوام ، مع حضور القلب ، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه . ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر . ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً فى قلبه ، حاضراً فيه ، كأنه لازم له ، لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد ، واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى . بل هو بما فعله صار متعرضاً ، لنفحات رحمة الله . فلا يبقى إلا الانتظار ، لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق . وعند ذلك ، إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق فى قلبه ، ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف ، لا يثبت ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفاً ، وإن ثبت فقد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على دفن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط .

وأما النظار وذوو الاعتبار ، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء . والأولياء . ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطئوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمعتذر .

---

(١) أخذنا هذه النصوص من طبعة السراوى وهى مرقمة بحسب صفحاتها فى هذه الطبعة .

بيـــان
شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم : أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب من حيث لا يدرى ، فقد صار عارفاً بصحة الطريق . ومن لم يدرك نفسه قط ، فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً . ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات .

أما الشواهد فقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا ، لنهدينهم سبلنا » . فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهو بطريق الكشف والالهام وقال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار » .

وقال الله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » من الإشكالات والشبه (ويرزقه من حيث لا يحتسب) يعلمه علماً من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة . وقال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » . قيل : نوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم ، يكثر فى دعائه من سؤال النور . فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم أعطنى نورا ، وزدنى نورا ، واجعل لى فى قلبى نورا ، وفى قبرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا » حتى قال « فى شعرى وفى بشرى وفى لحمى ودمى وعظامى » وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى « أفمن شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه » . ما هذا الشرح ؟ فقال « هو التوسعة ، إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح » .

وقال صلى الله عليه وسلم ، لابن عباس : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ، وقال على رضى الله عنه : ما عندنا شيء ، أسره النبي صلى الله عليه وسلم ، إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه . وليس هذا بالتعلم . وقيل فى تفسير قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء » إنه الفهم فى كتاب الله تعالى . وقال تعالى : « ففهمناها سليمان » . خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق . والله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة . وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله تعالى » وإليه يشير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » . وقوله تعالى : « قد بينا الآيات ، لقوم يوقنون » وروى الحسن عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « العلم علمان ، فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع » وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو : فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين ، وإن عمر منهم » . وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث يعنى الصديقين ، والمحدث هو الملهم ، والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسوسات الخارجة . والقرءان مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف . وذلك علم من غير تعلم .

وقال الله تعالى : « وما خلق الله فى السموات والأرض ، لآيات لقوم يتقون » . خصصها بهم . وقال تعالى : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »

وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب ، فإذا نسى ما حفظه صار جاهلا ، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولا درس . وهذا هو العلم الربانى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وعلمناه من لدنا علما » مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علما لدنيا . بل اللدنى الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل . ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر . وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، لعائشة رضى الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته حاملا فولدت بنتاً . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته ، يا سارية الجبل الجبل . إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك ، رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى ، فنظرت إليها شزرا ، وتأملت محاسنها ، فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت : يدخل علىّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ! ! أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك ، فقلت أوحى بعد النبى ؟ فقال لا ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة .

وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيرا عليه خرقتان فقلت فى نفسى هذا وأشباهه كلٌّ على الناس . فنادانى وقال : والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه . فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال : وهو الذى يقبل التوبة عن عباده . ثم غاب عنى ولم أره . وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى ، وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قمت قلت فى نفسى : من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بى ، يا أبا العباس ، رد هذه الهمة الدنية . فإن لله تعالى ألطافاً خفية

النص الثالث — ١٣٨٩

والدليل القاطع (على الكشف) الذى لا يقدر على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب . وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة . فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن الغيب وأمور فى المستقبل ، كما اشتمل عليه القرآن . وإذا جاز ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق . وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً ، فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لا محالة أن يقرأ بأن القلب له بابان ، باب إلى الخارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب ، وهو باب الإلهام والنفث فى الروع ، والوحى ، فإذا أقرّبهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه . فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه ، من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور

مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة ، فلنقتصر على ما ذكرناه فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين ، ظهر لى الملك ، فسألنى أن أملى عليه شيئاً من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد ، وقال مانكتب لك عملا ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل ، فقلت ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا : بلى ، قلت : فيكفيكما ذلك . وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين ، لا يطلعون على أسرار القلب . وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة.

النص الرابع فى الفرق بين العلم النظرى والعلم الكشفى — ١٣٨١

فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه . فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس . فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ ، كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض . وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فاذاً للقلب بابان . باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكى عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة : فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك ، وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ ، فتعلمه علماً يقينياً بالتأمل فى عجائب الرؤيا ، واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل ، أو كان فى الماضى ، من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى ، وقال صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون » قيل ومن هم المفردون يا رسول الله ؟ قال « المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافاً » ثم قال فى وصفهم إخباراً عن الله تعالى « ثم أقْبِلُ بوجْهى عليهم ، أترى من واجهته بوجهى يعلم أحدٌ أىَّ شىء أريد أن أعطيه » ثم قال تعالى : أول ما أعطيهم أن أقذف النور فى قلوبهم فيُخْبرون عنى كما أخبر عنهم » ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن .

فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا ، وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس ، المفتوحة إلى عالم الملك .

النص الخامس فى الجود الإلهى — ١٣٥٩

معلومات الله سبحانه لا نهاية لها ، وأقصى الرتب رتبة النبى ، الذى تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها ، من غير اكتساب وتكلف ، بل بكشف إلهى فى أسرع وقت . وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة ، لا بالمكان والمسافة . ومراقى هذه الدرجات ، هى منازل السائرين إلى الله تعالى ، ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل . فأما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علماً ، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده ، ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبى . وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته . « ما يفتح الله للناس من رحمة ،

فلا ممسك لها » . وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى ، غير مضنون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر فى القلوب المتعرضة ، لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » . والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، كما سيأتى بيانه :

وإلى هذا الجود الإشارة ، بقوله صلى الله عليه وسلم : « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا ، فيقول : هل من داع ، فأستجيب له ؟ » ؛ وبقوله عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه عز وجل « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً » ، وبقوله تعالى : « من تقرب إلى شبراً ، تقربت إليه ذراعاً » . كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لبخل ومنع من جهة المنعم ، تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً ، ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب ، فإن القلوب كالأوانى ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله ، صلى الله عليه وسلم : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ، لنظروا ، إلى ملكوت السماء » .

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة . وأشرف أنواع العلم . هو العلم بالله وصفاته وأفعاله . فيه كمال الإنسان ، وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال .

النص السادس — ٢٥٨١

بيـــان

شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فرض . وكيف يفرض ما لا وجود له ، وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على اثباته لله تعالى قوله عز وجل : « يحبهم ويحبونه » ، وقوله تعالى : « والذين آمنوا أشد حباً لله » وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلى : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ ، قال : « أن يكون الله ورسوله ، أحب إليك مما سواهما » ؛ وفى حديث آخر : « لا يؤمن أحدكم حتى ، يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » ؛ وفى حديث آخر : « لا يؤمن العبد حتى أكون ، أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » . وفى رواية « ومن نفسه »

كيف وقد قال الله تعالى : « قل إن كان ، آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم » . الآية . وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالمحبة فقال : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبونى لحب الله إياى » .

ويروى ، أن رجلا قال يا رسول الله : إنى أحبك فقال صلى الله عليه وسلم : « استعد للفقر » فقال إنى أحب الله تعالى . فقال : « استعد للبلاء » .

وعن عمر رضى الله عنه ، قال : نظر النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى هذا الرجل الذى نوّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبويه يَغْذُوانه بأطيبِ الطعامِ والشرابِ ، فدعاه حبُّ اللهِ ورسوله إلى ما تَرون » .

وفى الخبر المشهور ، أن إبرهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ! فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محباً يكره ، لقاء حبيبه . فقال يا ملك الموت الآن فاقبض . وهذا لا يجده ، إلا عبد يحب الله بكل قلبه ، فإذا علم

أن الموت سبب اللقاء ، انزعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه : « اللهم ارزقنى حبك، وحب من أحبك، وحب ما يقربنى إلى حبك ، واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد » . وجاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، متى الساعة ؟ قال : « ما أعددت لها » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » قال أنس . فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر » .

وقال الحسن : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ، فإذا تفكر حزن » وقال أبو سليمان الدرانى : « إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا » .

ويروى ، أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر وقد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ما أرى ! فقالوا: الخوف من النار . فقال حق على الله أن يؤمن الخائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيراً فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ! قالوا: الشوق إلى الجنة . فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيراً، كأن على وجوههم المرئى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ! قالوا نحب الله عز وجل . فقال: أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون .

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم فى الثلج ، فقلت أما تجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله ، لم يجد البرد ، وعن سرى السقطى قال : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام ، فيقال يا أمة موسى ، ويا أمة عيسى ، ويا أمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون يا أولياء الله ، هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهى تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب ، فكيف رضوانه ! ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ! وحبه يدهش العقول فكيف وده ! ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه !

وفى بعض الكتب : عبدى ، أنا — وحقك — لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً .

وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب ، أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب ؛ وقال يحيى ابن معاذ : إلهى إنى مقيم بفنائك ؛ مشغول بثنائك صغيراً ، أخذتنى إليك ؛ وسربلتنى بمعرفتك ؛ وأمكنتنى من لطفك ؛ ونقلتنى فى الأحوال وقلبتنى فى الأعمال ستراً وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورضا ، وحباً ، تسقينى من حياضك وتهملنى فى رياضك ، ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك ، ولما طر شاربى ولاح طائرى . فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً . وقد اعتدت هذا منك صغيراً ! فلى ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب ، وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل فى حصر حاصر ، وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض فى تحقيق معناه ، فلنشتغل به .